بحث انتقادي

في

مختصر في تاريخ سورية

تأليف الاب هنري لامنس اليسوعي طبع في المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٩٢١ مجلدان من قطع الوسط في ٥٥٦ صفحة .

H. Lammens, S. J. : La Syrie précis historique — Beyrouth, Imprimerie Catholique, 1921; 2 vol. in-8°, 556 pages.

هذا آخر ما خطته انامل صديقنا الاب لامنس باللغة الافرنسية في التاريخ بعد ان نشر بهـا ابحاثاً في بعض خلفاء الامويين في الشام ونشر بالعربية كتاب تسريح الابصار في مايحتوي لبنان من الآثار الى غير ذلك من الكتب الجيدة والابحاث المفيدة .

وقد قسم تاريخه هذا ادواراً وقسم كل دور الى ابواب وفصول ونسقه تنسيقـاً جيداً بحيث يعثر الطالب فيه من ايسر سبيل على المادة التي يريدها والعصر الذي ينوي الوقوف على اهم حوادثه . وكتابه هذا مختصر للمدارس مكتوب باسلوب رشيق وفي آخر كل صفحة المصادر التي يعزى اليها القول .

الكلام في هذا الوجيز على تاريخ الشام قبل الاسلام مختصر للغاية اما الكلام على عهد الاسلام فقد تصرف فيه المؤلف حسب الاحوال فتوسع في اماكن حتى كاد يدخل كتابه في عداد المطولات واقتضب في اخرى حتى اوشك ان يخرج مصنَّفه عن موضوعه و يخل بتسلسل حوادثه .

استعمل المؤلف حريته في نقد الحوادث على اسلوب بعض المؤرخين المعاصرين ولكنه لم يكن الى جانب الصواب في كل ما انتقد وعلق ومثله على تمكنه من التاريخ لا يصعب عليه ان يورد حقائق تلقح عقل الطالب فكراً جديداً من تاريخ صحيح بريء من مؤثرات المعتقدات وتصورات المخالفـات . فيكون شأنه في الكتابة على العرب شأن

رجل خالي الغرض يكتب تاريخ الحروب الدينية في اوربا مثلاً فلا يتحزب للبرتستانت المجددين ولا ينحي على الكاثوليك البابويين بل يكتب الكوائن مجرداً عن الغاية فينال كلامه القبول من كل القلوب .

اما وتاريخه ستتناوله ايدي الطلاب فالاولى ان يجرد مما ينافي الحقائق ولذا فانا نستميح حضرة المؤلف بايراد بعض ملاحظات على تاريخه عسى ان يصلح في طبعة ثانية مايوافقنا عليه حتى يكون كتابه تاماً من كل وجه متصفاً بالاوصاف المطلوبة في التاريخ فقد قال مونتسكيو في روح الشرائع : ان المؤرخين في الحكومات الملكية المطلقة المتناهية في اطلاقها يكذبون لانه ليس لهم حرية حتى يقولوا الحق اما في الدول الملكية المفرطة في حريتها فانهم يخونون الحق بسبب حريتهم نفسها التي توجد ابداً التفرقة فيصبح كل واحد منهم عبد اوهام حز به كما كان لو عاش في ظل مستبد ظالم اه .

فما لاحظناه ان المؤلف يأتي بجمل ينتزعها من عبارات بعض المحترمين من الخلفاء والسلاطين والفاتحين وغيرهم قيلت في احوال خاصة لا تدرك على جليتها الا اذا ذكرت العبارة مع سياقها وسباقها فيأتي المؤلف بجملة من المقول بالعربية ويترجمها بالافرنسية ويستخرج منها موضوعاً قد يكون سبة على قائلها او يستنتج من ذلك انها كانت دستوراً جرى العمل عليه مثل قوله (ج ١ ص ٦٠ و ٦١ و ٦٢) اخذاً عن الطبري من كلام عمر بن الخطاب « اخرب الله مصر في عمران المدينة وصلاحها » وعبارة الطبري لا يفهم منها كما ترى ان عمر امر بخراب مصر ليعمر المدينة وهذا نص عبارته :

وجاء كتاب عمرو بن العاص جواب كتاب عمر في الاستغاثة ان البحر الشامي حفر لمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حفيراً فصب في بحر العرب فسده الروم والقبط فان احببت ان يقوم سعر الطعام بالمدينة كسعره بمصر حفرت له نهراً وبنيت له قناطر فكتب له عمر ان افعل وعجل ذلك فقال له اهل مصر : خراجك زاجٍ واميرك راضٍ وان تم هذا انكسر الخراج فكتب الى عمر بذلك وذكر ان فيه انكسار خراج مصر وخرابها فكتب اليه عمر اعمل فيه وعجل اخرب الله مصر في عمران المدينة وصلاحها فعالجه عمرو وهو بالقلزم فكان سعر المدينة كسعر مصر ولم يزد ذلك مصر الا رخاء ولم ير اهل المدينة بعد الرمادة مثلها حتى حبس عنهم البحر . »

وهكذا نسب اموراً للخليفة الثاني لا يوافقه عليها التاريخ الصحيح ولكن المؤلف غريب في تسامحه واحكامه يحسن ظنه بيزيد وابيه و ينسب العجز الاداري لابن الخطاب(٥٩) فقد قال ان يوم الجابية افلست سياسته وان فتح الشام لم يكن بناءً على خطة مرسومة بل يراد به غزو بلاد مفتحة الابواب ليس فيها شيء من اسباب الدفاع ! واحداث مشغلة للعرب ثم ادعى ان العربي اثبت انه جبان ضعيف في الجندية لا يفكر في غير المغانم وقال انه ظهر البدو « ٢٢٧ م ٢ » كما كانوا على عهد الرسول انهم وسط في الجندية مستعدون للنهب يحجمون امام الخطر . واعمري ان جندياً هذه صفته كيف يستطيع ان يظفر بالجندي المدرب المهذب التقي من جنود الروم وباقراره ان جيش الروم يوم اليرموك كان ثلاثين الفاً وجيش العرب خمسة وعشرين مع ان الثقات يقولون ان جيشهم كان اكثر من ذلك فقد قال البلاذري ان المسلمين يوم اليرموك كانوا ٢٤ الفاً قتلوا من الروم ٧٠ الفاً ومع ذلك على حضرته ما كان من امر اليرموك ومن تفاشل ذاك الجيش العجيب بكل صفاته امام الجيش العربي الجبان الضعيف في اصول الكر والفر البعيد عن كل تصور الا المغانم وكذلك كان حاله يوم فحل واجنادين وغيرهما من الوقائع التي انتهت بتغلب الجبان على الشجاع .

وقوله ان العرب « ص ٦٢ م ١ » تركوا للوطنيين محاكمهم ولسانهم ونظاماتهم البلدية وتقسيماتهم الادارية وابقوا في البلاد من لم يستطع من قدماء الموظفين ان يلحق بالروم وعلق على هذا العمل حاشية في آخر الصفحة معناها ان العرب لم يقدروا ان يستعيضوا عن هؤلاء الموظفين فهذا اذاً عجز منهم لا تسامح .

وتوسع في كلامه على النصارى (٧٠) الذين دخلوا في خدمة معاوية ومنهم ابن أثال الطبيب الذي كان يتولى خراج حمص ولم يقل لنا السبب الذي كان لاجله يستعمل ابن أثال الذي كان يدس السم لكبار الامة حتى مات في زمانه كثير من اعيانها منهم عبد الرحمن بن خالد عامل حمص فكافأه معاوية بان ولاه خراجها فقوله اذاً ان معاوية (٧٢) اختار استمالة خصومه لا إهلاكهم بصورة وحشية كما فعل العباسيون مسألة لا تصح على اطلاقها . ودعواه ان مؤرخي العباسيين كانوا يكتبون بلسان رسمي تحت ضغط الملوك فيه مايقال ولا نذكر اننا رأينا مؤرخاً ثقةً اثبت ان العباسيين كانوا

يضغطون على المؤرخين ليكتبوا لهم على الامويين ما يحبون بل على العكس شاهدناهم يذكرون كل امريء مقرونًا بعمله والا ففي اي عصر كان محدث الامة ابن جرير الطبري الذي كتب الحسنات والسيئات وبالغ في التجويد بذلك الى الغاية التي ليس وراءها غاية . فاذا زعم الناقد ان المؤرخين في العهد العباسي توخوا ارضاء الخلفاء فيما كتبوا فلماذا لم يكونوا يتوخون ارضاء الخلفاء من بني العباس في حياتهم بالكف عن اجدادهم وآبائهم فيوردون الفظائع التي اجترحوها غير متعتعين ولا مجمجمين . ودعوى المؤلف « ص ٩٥ » ان منشأ مذهب القدرية الذين استعملوا حرية النظر في الاسلام وكثروا في الشام واشتد نفوذهم كان من اختلاطهم بالمسيحيين مستدلاً على ذلك بان المسلمين كانوا يختلفون الى رؤساء النصارى بدمشق ويناقشونهم في هذه المسائل هذه الدعوى غير حقيقية

وقد رأينا صاحبنا يحرص جد الحرص على نسبة كل شيء الى سكان البلاد الاصليين وقد كرر غير مرة ان عالم قريش خالد بن يزيد الاموي تلميذ راهب ولم يقل كلة واحدة فيما افضل فيه هذا التلميذ على الآداب العربية وكيف كان اول من ترجمت له العلوم من السريانية واليونانية والقبطية في دمشق وما هي منزلته من الخلفاء وهو عالم الامويين ومحدثهم ومستشارهم وشاعرهم ونظن عمل خالد بن يزيد هذا من التطورات المهمة في تاريخ الامة التي تستحق ان يشار اليها ولو بسطر واحد اكثر من اخذه عن راهب علماً — علم الكيمياء — لم يكن له معرفة به او غير ذلك من الاشياء التي وردت في عرض الكتاب وغيرها احق بالذكر منها .

ومما قاله في شيخ الاسلام ابن تيمية (ج ٢ ص٢٧) انه صاحب المذهب الارتجاعي *Ecole réactionnaire* وان عمله مختل وانه كان لا يفتر عن مقاتلة البدع وقضى حياته وهو يسوق ابناء دينه في سبيل التعصب ونقل ما عزي الى ابن بطوطة الرحالة من ان ابن تيمية كان مختل الشعور وعلل هذا بانه قضى من اجل ذلك معظم حياته في السجن وفي الجدال بالقلم واللسان وليت شعري كيف يعتمد قول عابر سبيل ربما لم يخالط بغير السوقة او ببعض المخالفين لابن تيمية ضاعت منه اوراق سياحته فكتبها له آخر - ابن جزي — وهو في بلده من ذهنه وحشاها الغث والسمين

ولا يحكم على ابن تيمية بكتبه وما قاله كبار علماء الامة من معاصريه وغيرهم فيه واذا كان ابن تيمية الذي اراد ارجاع الدين الى نضرته وعمل في الاسلام ماعمله لوثيروس في النصرانية يعد من دعاة التعصب المضرين فمن يكون النافع في نظر المؤلف المحترم

نحن لانتطال الى ان يكتب المؤلف على رجال الاسلام بدون نقد ولا تمحيص ولا ان يقيد حريته في الحكم عليهم ولا نطلب منه ان يعتقد في دينهم اعتقاد اهله بل نطلب منه ان ينصف التاريخ ويتجرد عن العواطف التي تذهب ببهجة العلم حتى لا يعد من المغالين في مذهبهم فقد قال في القرآن (١٦٢) و ايجازه وتفسيره و بلاغته اشياء كان يقول بها متعصبة الادبار في القرون الوسطى وكنا نود ان لا يقلدهم في آرائه قال المعاصرون من غير المسلمين خلافها وفي كلامه حط من دين يؤمن به نحو ثلثمائة مليون من البشر وتاريخه يظهر بينهم وفي بلادهم .

ثم ان دعواه « ١٦٦ » ان الفقه الاسلامي قد تأثر بالفقه القديم السابق ولا سيما بالفقه الروماني وذلك بواسطة الحقوق القانونية للكنائس المسيحية في الشرق هي دعوى ادعاها غيره قبله ولم يأتوا عليها بحجة مقبولة معقولة ولا نرى في دحض هذه الفرية عن فقه الاسلام الان نحيله على الرجوع الى المقالات الممتعة التي كتبها في مجلة المقتطف (في المجلدين الـ ٢٩ و٣٠) صديقه وصديقنا العلامة المرحوم الشيخ سعيد الخوري الشرتوني اللبناني صاحب اقرب الموارد و بذلك يتبين له فساد هذا الزعم وان مصادر الفقه الاسلامي الكتاب والسنة والاجماع والقياس ليس الا .

ومن اغرب الآراء دعواه (١٦٧ ـ ٢) انه كان من انتشار المذهب الحنفي في الهند ان اهله قاموا في العهد الاخير ينصرون الخليفة العثماني ويعاونونه على توطيد عرشه في الاستانة لانه هو حنفي ايضاً وليس لهذه الظاهرة علاقة بالمذهب بل هي جامعة الدين ليس الا وها انا نرى المسلم الافريقي يتأثر لما يحل باخيه الهندي او الافغاني او الايراني دون النظر الى مذهب خاص بل الى مجموع اهل الاسلام بل ارثق هذا الاشمئزاز في الشرق من الغرب ان دخل فيه اهل كل نحلة كما هو الحال في الهند فان براهمتهم ومجوسهم ومسلميهم سواء في كراهة الحكم الغربي والمناداة بالشرق للشرقيين . ومعلوم ان المذاهب الاربعة المشهورة اليوم تذهب من الاسلام والاسلام يبقى اسلاما

لان المسلمين في القرن الاول والثاني لم يكونوا احنافاً ولا شوافع ولا موالك ولا حنابلة .

والمؤلف يصف كل واحد من المشاهير بصفة فقد وصف صلاح الدين يوسف بن ايوب بالطباع ولكنه وصف الحروب الصليبية بوقائع البسالة ! *Héroïques aventures* ووصف السيد جمال الدين الافغاني (١٩١ م ٢) بالمهيج الافغاني وكان الانصاف يقضي عليه ان يصف ملوك الصليبيين بالاوصاف التي تليق بهم ولكنه صورهم كلهم على الغاية من النجدة والعقل كأنهم كلهم كانوا كفريدريك الكبير ولويس الرابع عشر ولو انصف لسمى تلك الحروب بحروب الجنون والطيش كما سماها المنصفون من مؤرخي الصليبيين ولذكر لبعض اولئك الملوك والامراء بعض صفاتهم في نقض العهود والعبث بالمهادنات وقتل الاسرى وغير المحاربين من الشيوخ العجزة والنساء والاطفال .

يقول روسو في اميل ارى فرقاً ضئيلاً بين تواريخكم وقصص من يأتي بقصة معروفة ويفصلها بحسب نظره ويزينها بامور يخترعها لها ، يأتي باشخاص معدومة وصور موهومة ويجمع كذباً الى كذب لتلذ قراءة ما كتب هذا ان لم يكن القصصي يعمل بفكره الخاص اكثر من ذاك المؤرخ المستعبد لفكر غيره والى هذا اضيف ان الاول يتوخى مقصداً ادبياً صالحاً كان او طالحاً والآخر لا يهتم لمثل ذلك اه .

وبعد فان المؤرخ اراد ان ينفي المنقبة التي اتاها صلاح الدين وربما عدت في نظر الغربيين من اهم اعماله الصالحة وهي ابقاؤه على الصليبيين يوم فتح القدس فلم يضع السيف فيهم كما فعلوا هم المسلمين يوم استيلائهم عليها وقال ان عمل المسلمين عجز وخوف ونفى الاب لامنس ماثبت من ان الصليبيين يوم فتحوا القدس قتلوا سبعين الفاً من المسلمين (ص ٢١٢ و ٢١٣) فقال ان هذا القول مما سلم به الباحثون بدون روية وادعى ان هذا العدد يوازي في ميزان الحق ما ادعاه مؤرخو العرب من ان الصليبيين قتلوا في بليدة المعرة الحقيرة معرة النعمان مئة الف انسان وقال في باب الاعتذار عن فعلة الصليبيين في القدس ان هذه المدينة عوملت بما تقضي به الاخلاق الحربية لذاك العهد في معاملة المدن التي تؤخذ عنوة .

وما ندري كيف يستطيع ان يفند اقوال مؤرخي العرب من ان الصليبيين قتلوا في المعرة مئة الف وهل يقيس ياترى مايراه اليوم من خراب البلاد بما كانت عليه في

القرن الخامس للهجرة وكانت مدينة المعرة التي يصفها بالبليدة الحقيرة Bicoque من امهات مدن الشام كمنبج وانطاكية وصور وعسقلان كما اكد ياقوت ولا توازي اليوم جميع سكان هذه الخمس مدن على التحقيق ربع او ثلث سكان احداها منذ ثمانية قرون والناظر الى خطط مدينة المعرة اليوم يرى ان بعد ما بين ابوابها نحو ساعة على السائر فمدينة هكذا كانت مساحتها لا يستعظم ان يحصن فيها مئة الف من اهلها وارباضها .

ولذا يصحح العقل حكمه على المعرة فلا يحكم عليها بما يراه اليوم من انحطاطها على ان الصليبيين لم يقتلوا هذا العدد الدثر باقواسهم ونشابهم ونفطهم ومنجنيقهم فقط بل قتلوهم صبراً وخنقوا الاطفال الرضع والنساء والعاجزين فاصبحت كأن لم تغن بالامس .

وقد توسع في كلامه على نظام الصليبيين في الشام واقتدار القائمين بالامر فيها حتى صورهم كأنهم دول اوربا الراقية في القرن العشرين . ويذكرنا هذا بقول مونتسكيو ان الاب لو كوانت على ما ايدته الآثار والمصانع ينكر ان البابا رخص بهذا التبديل الكبير ومن حجته انه اذا امر بذلك فيكون عمله ظالماً . قال ومن العجيب ان نرى مؤرخاً يحكم على ما اتاه الناس بما كان عليهم ان يفعلوه . ولا نقوم للتاريخ على هذه الصورة قائمة في اثبات الحجة اه .

ومن الغرائب في هذا التاريخ دعوى المؤلف ان دار العلم بطرابلس (ص ٢١٥ ج ١) لم تكن مدرسة جامعة بل مدرسة صغيرة لتلقين العلم الديني وقال ومن رأينا ان حريق الجامع الاموي بدمشق سنة ١٠٦٩ م على عهد الفاطميين كان اشأم على العلم من اخذ طرابلس . بيد ان المؤرخين مجمعون على ان طرابلس كان فيها دار حكمة على مثال بيت الحكمة في بغداد وقد قال الاثري العلامة فان برشم في مفكراته « ازهرت طرابلس زمن القاضي ابن عمار وقد جعلها مركزاً من مراكز التشيع وانشأ فيها بيت حكمة جهزه بمائة الف مجلد من الكتب وكان فيها على عهده مدرسة جامعة ومدارس دينية وخزائن كتب وربما كانت طرابلس قبيل استيلاء الصليبيين عليها اول بلدة علمية في الشام » .

ومن غرائب الاحكام (ص ٢٦٧ ج ١) ان اليهود كانوا في الحروب الصليبية ممتعين بحقوق الوطنيين عند الصليبيين بدون ادنى قيد وكانوا مساوين للمسيحيين وشهادتهم امام القضاء تعادل شهادة المسيحي خلافاً لذلك عند المسلمين . وما نظن حضرة المؤلف الا

اطلع على ما كتبه ميشو *Michaud* في تاريخ الصليبيين وما كتبه لافيس ورامبو *Lavisse et Rambaud* في التاريخ العام وما كتبه ريناخ *Reinach* في تاريخ الاديان في سوء معاملة الصليبيين للاسرائيليين في اوربا يوم الشروع بالحروب الصليبية وابتداء هذه الفظائع الى عهد ديوان التفتيش الديني بل الى آخر ايامه فاذا استحل الصليبيون اذ ذاك قتل اليهود واخذوا اموالهم في الغرب وعاملوهم بكل منكر في الاديان السماوية والقوانين الوضعية كيف يساوونهم بانفسهم ويحمونهم ويحسنون اليهم في الشرق . ونظن هذا من باب الخيال لا تؤيده شواهد التاريخ .

وقد بعد المؤلف عن الحقيقة كثيراً بدعواه (ص ٢٦٩ ج ١) ان دور الاكراد الايوبيين كان قليل البهاء *Peu brillante période* وما ندري لعمر الحق اي بهاء اعظم لهذه الدولة من كون صلاح الدين وأسرته يدفعون عادية اعدائهم من الصليبيين على قلة عددهم واسبابهم ثم تروج العلوم والمعارف في ايامهم حتى أنشئت على عهدهم معظم الجوامع والمدارس ودور القرآن والحديث والفقه والطب والهندسة والمستشفيات والزوايا والربط والخانقات في دمشق وحلب والقدس وغيرها من البلاد التي لم يستطع اعداؤهم استصفاءها وكلها او معظمها من حسناتهم وحسنات مواليهم وعتقائهم فقل لي بالله اي دولة تستطيع ان تأتي بمثل هذه الاعمال وتصلح الطرق والجسور وتقيم القلاع وتجر المياه من القاصية تسيلها الى المدن والقرى وتخفف المكوس والضرائب عن رعاياها وتعاملهم على اختلاف نحلهم بالرفق والعطف ثم يقال لها انها دولة قليلة الزهو خفيفة الحال .

والغالب ان المؤلف سامحه الله اصدر حكمه على هذه البلاد في عهد العرب من اول ساعة وقاس كل ما رأى بعد ذلك على ذاك المقياس فقال عند كلامه (ص ٢٠٧ ج ٢) على الاحزاب التي نشأت في الشام لم تلبث ان أصيبت بالخلاف والمناقشات الشخصية وهو الارث الذي اورثها اياه ظلم ثلاثة عشر قرناً . اي ان المؤرخ لا يعترف بانه قامت للعدل سوق في هذه الديار منذ فتحها الفاتحون من العرب ونسي او تناسى على الاقل عهد الرشيد والمأمون ونور الدين وصلاح الدين . فقبح الاب لا منس الكل بقوله . وكنا نود لو خص في كتابه بضع صفحات بيضاء في عدل الروم والرومان في الشام لنرى

الفرق بين السابقين واللاحقين بيد انه صور العرب انهم سالبة كلية في هذا القطر وفي غيره لا مدنية ولا صناعة ولا عدل ولا نظام وهذا مما لا ينطبق مع الوف من الشواهد ويكفي بان نذكره بقول سيديليو في تاريخ العرب : «لايسع احداً ان ينكر ان الخلفاء كانوا الى القرن التاسع لميلاد سادة مملكة عظيمة زاهرة وعجيبة بازهارها وان ملوك بغداد كانوا يبعثون بالسفارات والهدايا الى الامبراطور شارلمان والى امبراطور الصين وانهم كانوا مثال العظمة الحقيقية بما انشأوه من معاهدهم الرشيدة وما بذلوه من الاخذ بايدي العلوم وان المدارس التي أنشئت في واسع ممالكهم كانت تجدد انارة مصباح المدنية من اقصى الشرق الى اعمدة هرکول تاركةً في كل مكان مصانع مدهشة من آثار الصناعة العربية ومؤازرةً على تجديد دم العالم القديم . »

واصرح من ذلك ما قاله رنان[1] : لم تُنح اوربا بتة من العمل العام الذي اثرته اللغة العربية . ومعلوم مقدار الكلمات في كل المطالب التي اخذها الاسبانيون والبرتقاليون من لغة جيرانهم المسلمين وفي اللغات الرومانية الاخرى عدد كبير من الكلمات العربية وكلها تعبر الا قليلا عن امور علمية او اعمال صناعية وتؤكد مبلغ انحطاط الشعوب النصرانية في القرون الوسطى عن المسلمين في العلم والصناعة اه

وقد افاض المؤلف في تاريخ لبنان حتى كاد يصبح كتابه تاريخاً لهذا الجبل والكلام على سائر اقاليم الشام جاء بالعرض مع ان الوقائع المهمة في تاريخ البلاد حدثت في دمشق وحلب والقدس وحمص وغيرها من الحواضر اكثر من قرى لبنان مثال ذلك انه ذكر فخر الدين المعني بتطويل لم يبلغ شأو بعض بعضه صلاح الدين بن ايوب فذكر من مزاياه انه رخص للفرنسيس ببناء خان عظيم في صيدا وللفلورنسيين بافامة فنصل لهم وتوسع في الامتيازات الاجنبية ورخص للرسلين الكبوشيين ان ينشروا دعوتهم في الشوف وعمر لهم اديراً وقال ان النصارى تنفسوا الصعداء في عهده و بعد ان عدد للامير اللبناني مآثر من هذا النبيل وذكر بعد نظره وجرأته في اعماله التي ربما عدت في نظره

(١) رنان في كتابه تاريخ اللغات السامية

Ernest Renan : Histoire générale et système comparé des langues sémitiques

تهوراً في الاحايين قال انه في الحقيقة جاء قبل اوانه وسابق عصره وان هذه الصفات يجب ان تنسى معهـا شدته في اساليبه ويغضى عن الطرق التي عمد اليها في ادارته — ولعله يقصد بذلك الى ان الغاية تبرر الواسطة — ثم قال ان هذا النقص كان من تربيته ونشأ من المحيط الذي عاش فيه وهو محيط افسدته بضعة قرون مضت في الاستبداد على عهد العناصر التورانية قال وكان ابوه وجده ضحـايا الاستبداد التركي فرأى ان يقابل الشدة بمثلها والرشوة بما يشا كلها ولم يصل مع هذا الى المقام الذي احرزه في هذا الشأن الباشاوات الاتراك (٨٤ و ٨٦ ج ٢) الخ

ونظن ماأتاه الامير المعني من هذا القبيل في تقليد حكام الترك في مشاربهم الادارية ليس مما ينطبق مع قانون الاخلاق الذي هو بالطبع قانون جميع الشرائع فالقاتل اذا قتل والسارق اذا سرق والكاذب اذا كذب مع اعتقادنا بسوء ما ارتكبوا في الحال والمآل لانقلدهم في عملهم المضر واذا فعلنا فنكون مثلهم او اردأ منهم .

ومن ذلك مانقله عن تاريخ الامير حيدر (١٤١ ج ٢) من ان الانكشارية في حلب سنة ١٧٩٧ انقضوا على السادة اولاد الرسول واهلكوا منهم ٢٥٠ شخصاً والحقيقة اشراف البلدة اي اعيانها وكان هناك حزبان حزب الانكشارية وحزبهم وكذلك قوله (٢١٩ ج ٢) ان الامير عمر الذي صلب في الحرب العامة مع المصلوبين من رجال البلاد هو حفيد الامير عبد القادر والحقيقة انه ابنه وقوله ان عظام الامير عبد القادر اثناء الحرب ذريت في الريح وليس هذا بصحيح بل ان قبره فقط درس ثم اعاده الاتراك الى احسن مما كان عليه . وقوله (١٨٣ ج ٢) ان الامير عبد القادر انقذ في فتنة الشام المشؤومة ١٥٠٠ مسيحي فحاول وحده ان ينقذ شرف الاسلام . والحقيقة ان الامير الكبير رحمه الله انقذ اكثر من هذا العدد وشاركه في هذا الغرض الشريف اعيان دمشق وعلماؤها وتجارها وغيرهم وقلما خلا بيت مسلم ذي منزلة اجتماعية من فتح بابه وصدره لحماية مواطنيه المسيحيين وحريمهم واولادهم على مايأمرهم بذلك دينهم .

ومن ضعف الاستنتاج في تاريخه استشهاده ببني حميدة ابنة النعمان بن بشير الانصارية في تقزز عرب الشام من عرب الحجاز وهما :

كهول دمشق وشبانها احب الينا من الجاليه

صنان لم كصنان التيو س اعيا على المسك والغالية

فقول شاعرة ان صحت نسبة البيتين اليها لاتكون قاعدة كلية في فك عرى الارتباط بين العرب كما ان قول تلك الشاعرة التي قالت :

ولبس عباءة وتقر عيني احب اليَّ من لبس الشفوف

الى آخر الابيات لايصح قاعدة في ميل العرب كلهم لسكنى البادية والا فكيف غصت الشام ومصر والعراق وفارس والاندلس وشمالي افريقية بالعرب فعربوا تلك البلاد ودانت بدينهم مع طول الزمن وتخلت عن مشخصاتها السابقة راضية مختارة .

ولم يذكر المؤلف في المدارس التي نهضت بالبلاد (ص ٢٠١ ج ٢) الا مدارس اليسوعيين ومدرسة الدومنيكيين العالية في القدس التي تدرس الآثار التوراتية واللغات الشرقية . والانصاف يقضي بان تذكر المدارس الاخرى التي كان لها شأن مهم في انهاض البلاد مثل المدارس الوطنية في بيروت ولبنان ودمشق وغيرها ومدارس الاميركان ولا سيما الجامعة الاميركية التي سبقت غيرها في تهذيب الناشئة وكان من افضال امثال الدكتور فانديك وورتبات وغيرهما على العرب والعربية مالا ينسى وتخرج بهما وباساتذة الجامعة مئات من رجال سورية قبضوا على ازمة المالية والتجارة وكان لهم شأن في الحركة الفكرية في الشام ومصر واميركا . وان من واجب المؤرخ ان يتجرد عن عواطفه الخاصة فاما ان يذكر المحسنين ايًا كانوا او يتخلى عنهم كلهم . ولعمري ان دمشق مثلاً تستحق ان تذكر بكلمة في نهضتها العلمية الاخيرة خصوصاً وهي قلب الشام وعاصمته منذ قرون متطاولة ونهضتها قامت بايدي ابنائها انفسهم لم تستند الى قوة خارجية ومعاضدة اجنبية .

هذا بعض مارأيت ملاحظته على تاريخ العلامة اليسوعي مجتزئًا به مخافة التطويل وذلك حرصاً على التاريخ الصحيح غير ناظر فيما كتبت لمقصد سواه . واعوذني من هوى الغض من مكانته ومن حب الجدل في غير محله فان وجد فيه حقاً وتقبله بقبول حسن فهذا ما اتوخاه وان رأى غير ذلك فليطوه على غره اذ الخير اردت ولا عصمة الا لله

محمد كرد علي